

في إرث ديب المعري

ابن خلدون ومكيافيللي^(١)

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(تتمة)

١ — « ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك الرذائل التي لا يمكن دونها انقاذ الدولة الابصعوبة ، ذلك أنه اذا بحث كل شيء بعناية ، الفينا ان شيئاً يبدو كالفضيلة ، اذا اتبع فانه يؤدي الى خرابه (أى الأمير) ، والفينا شيئاً آخر يبدو كالرذيلة ، اذا اتبع فانه مع ذلك يؤدي الى سلامه ورخائه »

٢ — « ليس اكثر تبديدا للمال من الجود والبذخ إذ سرعان ماتعجز عن مزاولتهما ، وتعدو اما فقيرا او محتقرا ، وتغدو اذا أردت ان تجتنب الفقر ، جشعا مكروها . ويجب على الأمير ان يحرص قبل كل شيء على أن لا يكون محتقرا او مكروها . وإذن فخير ان يشتهر الأمير بالوضاعة التي تثير اللوم دون بغض من ان يرغم الانسان من طريق البحث عن الشهرة بالجود ، ان يوصم بالجشع الذي يثير اللوم والبغض »

٣ — « كان بورجيا يعتبر قاسيا ، ومع ذلك فان قسوته ارضت رومانيا (من الولايات البابوية) ووحدتها ، وردت اليها السلام والولاء . ولو تأملت ذلك حق التأمل لرأيت انه كان اكثر رحمة من الشعب الفلورنسى ، الذي أراد أن يتجنب الشهرة بالقسوة فترك بستويا حتى خربت . واذن فمادام الأمير قادرا على الاحتفاظ لشعبه بالوحدة والولاء ، فليس عليه ان يهتم بوصمة القسوة لانه بذلك يكون اكثر رحمة من أولئك الذين يفرطون في استعمال الرحمة ، فتثور القلاقل ، ويعقبها القتل والنهب »

٤ — « وهنا يبدو سؤال : أخير أن يحب الانسان من أن يرهب أو يرهب من أن يحب ؟ ويمكن أن نجيب بأنه من المرغوب ان يكون الانسان محبوبا مرهوبا ، ولكن مادام اجتماعهما في شخص واحد غير ممكن ، فانه خير واكثر سلامة ان يرهب الانسان من أن

يجب اذا وجب ان يتصف بأحدى الصفتين »
٥ — « لا يستطيع الأمير العاقل ولا يجب عليه أن يحفظ العهد اذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، واذا لم يبق للأسباب التي حملته على قطعه وجود »

٦ — « وإذن فليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها ، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه يتصف بها . . . ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد ، أن يراعى كل الامور التي يقدر الناس من أجلها ، لأنه كثيرا ما يرغم ، لكي يحفظ الدولة ، على أن يتصرف بغير ما يقضى به الاخلاص ، والصدقة ، والانسانية ، والدين . وإذن فمن الضروري أن يكون عقله متأهبا ليعمل طبقا لتقلب الريح والحظ »

٧ — وقال مشيرا الى سياسة ملك أسبانيا فرديناند الكاثوليكي ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة : « إنه ينتحل الدين دائما عذرا للقيام بأعمال عظيمة ، وقد ثابر بقسوة صالحة على اخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه » (١) نستطيع من هذه الماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكيافيللية في تصوير الدولة والأمير . وهى فلسفة تقوم على الحقائق العملية . وتحل هذه الحقائق على رغم جفائها وروعها المكان الأول في بناء الدولة ، وفي سياسة الأمير . فالنفاق والشح والوضاعة ، والقسوة والارهاب ، والغدر والنكث بالعهد . واهدار الاخلاص والصدقة والأمانة والدين ، وما إليها مما ينافى المثل الفاضلة وتآباه الاخلاق والانسانية ، ليس مما تنكره الفلسفة المكيافيللية ، ولا مما يشين السياسة التي تقوم عليها . ومن ثم كان الأمير أو السياسي الأمثل في نظر مكيافيللي طاغية لجأ في تأييد سلطانه الى أروع الوسائل وأشنعها مثل البابا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى بورجيا (دوق فالنتينو) (٢) . ويتناول مكيافيللي طرفا من حياة شيزارى

١٥ راجع الترجمة الانجليزية لكتاب الأمير The Prince ص ١٢٣ و ١٣٠

و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٧٨ (الطبعة المشار اليها)

٢٥ البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا تولى البابوية من سنة ١٤٩٢ الى وفاته سنة ١٥٠٣ وابنه شيزارى طاغية رومانيا وبعض الولايات الايطالية الاخرى ولد سنة ١٤٧٦ وتوفى سنة ١٥٠٧ بعد خطوط وحوادث عظيمة ، واشتهر بالجرأة والغدر والقسوة الرائعة

١٥ من كتابه « ابن خلدون » الذي يظهر هذا الأسبوع

بورجيا الذي عرفه واتصل به في رسالة خاصة، ويبدو إعجابه بتلك الخطط والوسائل الدموية التي ابتدعها ودبرها شيزاري للبطش بخصومه من الأمراء والقادة وقتلهم غدر أو غيلة. ومن ثم كان ذلك الطابع الاسود الذي ما يزال يدمغ « السياسة المكيافيلية » الى عصرنا. بيد أنه من الحق أن يقال أن المفكر الايطالي يبدي في صوغ فلسفته كثيراً من القوة والبراعة وبعد النظر، وأن هذه النظريات والمبادئ التي قد يحكم عليها من الوجهة النظرية الخالصة، كانت وما زالت على كرام العصور قوام السياسات الظافرة، وما تزال الى يومنا عنوان السياسة العملية القوية.

(٢)

يتناول ابن خلدون كما قدمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى، ويتفوق على مكيافيلي تفوقاً عظيماً في معالجته من الناحية الاجتماعية. ويلتقي المفكران العظيمان في مواطن كثيرة. مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون في فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ في درس أحوال الأمم، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العاسفة في نفوس الشعب، وعن خلال الأمير وتطرفه أو توسطه فيها، وعن حماية الدولة وأعطيات الجند، وعن منافسة الأمير للرعية في التجارة والسكسب؛ وعن تطلع الأمير الى أموال الناس وأثر ذلك في حقد الشعب عليه، وعن تطرق الخلل الى الدولة وامتداد يد الجند الى أموال الرعية، وكذا ما يقوله عن كتبة (سكرتارية) السلطان (١) فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالجها مكيافيلي أو يقترب منها سواء في كتاب الأمير أو في كتاب آخر له هو « تاريخ فلورنس » Istorie Fiorenitine تتخلله تأملات فلسفية واجتماعية كثيرة (٢). وقد لا يتفق مكيافيلي مع ابن خلدون دائماً في الرأي، أو في منحي التفكير، ولكن كثيراً ما يقوله المفكر العربي يتردد صدها فيما يقول المفكر الايطالي. فابن خلدون هو بحق استاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التي تناول مكيافيلي بعده بنحو قرن بعض نواحيها؛ وهو بالأخص صاحب الفضل الأول في فهم الظواهر الاجتماعية وفي فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها، وترتيب القوانين الاجتماعية عليها بهذا الأسلوب العلمي الفائق

قال العلامة الاجتماعي جمبلوفتش : « إن فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التي أسداها مكيافيلي بعد ذلك بقرن إلى الحكام في كتابه « الأمير ». وحتى في هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل، وفي

١٠ راجع المقدمة ص ٧ و ١٥٧ و ١٥٨ و ٢٣٥ و ٢٣٩ و ٢٤٨ و ٢٥٠ و ٢٥١

٢٠ قارن ما كتبه مكيافيلي في موضوعات مماثلة في كتاب الأمير The Prince

ص ٩٨ و ١٠٨ و ١١٨ و ١٢٦ و ١٣٥ و ١٤٩ و ١٨٣ وغيرها

صبغتها الواقعية الخشنة، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للايطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب (٣) وقال استفانو كلوزيو مقارناً ابن خلدون بمكيافيلي : « إذا كان الفلورنسي العظيم (مكيافيلي) يعلمنا وسائل حكم الناس، فإنه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر، ولكن العلامة التونسية (ابن خلدون) استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية كاتصاوي وفيلسوف راسخ، مما يحمل بحق على أن نرى في أثره من سمو النظر ومن النزعة النقدية ما لم يعرفه عصره » (٤)

وقد نتساءل أخيراً، هل وقف المفكر الايطالي على شيء من تراث ابن خلدون واسترشد به، أم وقف على شيء من آثار المفكرين المسلمين قبله في موضوع السياسة الملكية وانتفع بها؟ نعتقد مع العلامة جمبلوفتش أن مكيافيلي لم يعرف حين كتابة « الأمير » شيئاً عن ابن خلدون أو عن آثاره، ولم يعرف من جهة أخرى شيئاً من آثار المفكرين المسلمين في موضوعه. صحيح أن بعض نواحي التفكير الاسلامي كانت معروفة في إيطاليا قبل مكيافيلي وفي عصره، وكانت ثمة علائق فكرية قديمة بين مسلمي الاندلس وشمال افريقية، وبين المجتمعات الفكرية في إيطاليا، وكانت آثار اسلامية كثيرة قد ترجمت يومئذ الى اللاتينية. ولكننا لا نلح في أثر مكيافيلي شيئاً يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أي مفكر مسلم في موضوعه. وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين من حيث فهم التاريخ وتحليله، واستقراء الحوادث، وترتيب القوانين الاجتماعية، فذلك يرجع كما قدمنا الى تقارب عظيم بين الذهنيين، والى تماثل في العصر والظروف التي عاش فيها كل منهما، والى تماثل في الخبرة السياسية التي اكتسبها كل منهما بخوض حوادث عصره والاتصال بأمرائه وساسته. وربما يكون مكيافيلي قد عرف شيئاً عن ابن خلدون ومقدمته في أواخر حياته بعد أن وضع كتاب « الأمير » بنحو عشرة أعوام اعني حوالي سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٤. ففي ذلك الحين كان الكاتب الاندلسي المتنصر الحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليون الافريقي Leo Africanus يقيم في رومة ويتجول في المدن الايطالية الشمالية وهو غرناطي ولد حوالي سنة ١٤٩٥ م. ونشأ في فاس وتولى لبلاطها بعض المهام السياسية، ثم حج الى مكة سنة ١٥١٦، وعاد بطريق قسطنطينية،

٣. Gumplowicz : un Sociologue Arabe XIV

ieme Siècle aperçus Sociologiques P.217

٤. S. Closio : Introduction à l'étude d'Ibn Kaldoun

[Rev-du Monde musulman 1914. p. 319]